الصخرة

١ ـ الاستقالة

أصبح لا مناص لي من مقابلة المدير ، فالصخرة تنمو وتثقل بمرور الزمن ، ولم أعد أطيق احتمالا . لا بد من القيام بعمل ما ، لقد ولدت سويّا كما يولد أي طفل في أية بقعة من هذا الكوكب ، ولكن ما كدت استنشق أولى نسمات الحياة ، وأمتص أول دفقة لبن من ثدي أمي ، حتى بدأت أحس ثقلا على كاهلي . ثقلا أخذ يزداد ويكبر كلما نموت وتقدمت بي السنون .

وعندما أرسلني والدي الى المدرسة الابتدائية ، واختلطت بأطفال الناس الآخرين ، استغرب هؤلاء جمودي واطراقي وبطء حركتي ، ولم أستطع أن أدافع عن نفسي أو أبوح لهم بما أعاني من ذلك الثقل المستقر بين كتفيّ .

كبرت وكبر حملي معي ، حتى اذا ما تجرأت يوما على مصارحة والدي بما في صدري من آلام وما فوق عاتقي من ثقل ، قال مؤنبا :

ـ انك لواهم ، وأنا لن أقبل منك بعد اليوم أن تسير مطرقا ، ارفع رأسك وانظر الى الافق البعيد واملأ صدرك بالهواء . واياك اياك أن تفكر في هذا الموضوع ثانية .

وقد نفذت أمر والدي ، فما وقع بصره عليّ الا وأنا مرفوع الرأس أحدق في طرف السماء ، وأدفع صدري الى الامام ما قدرت على ذلك ، ولكني كنت دائما أشعر بعبوديتي لذلك الحمل الذي أضناني وقيدني ، فما أنفكّ لحظة عن التفكير في وسيلة للانعتاق منه .

والآن وقد مات والدي منذ زمن ، وبلغت مبلغ الرجال ، عاد ذلك الثقل الذي كنت أشعر به خفيا كامنا تحت الجلد ما بين كتفيّ . عاد بشكل جديد . وصرت أحسه وألمسه بأطراف أصابعي وهو ينمو ويتضخم . وكلما وقفت أمام المرآة عاريا شاهدت صخرة حقيقية جاثمة بين منكبي .

ويوما بعد يوم طفقت الصخرة تصرّ على البروز والظهور رغم حرصي على تغطيتها واخفائها بالملابس ، ومبالغتي في تمويهها بشتى الحيل والاساليب . حتى ازددت احدابا واطراقا في سيري ، وأصبحت أشبه بمن يبحث عن شيء ثمين دقيق سقط منه في تراب الطريق .

لا مناص لي من مقابلة المدير ، فلقد بلغ السيل الزبى ، وفرغ صبري وما عدت أطيق الحياة .
قلت للمدير :

ـ سيدي ، أرجو اعفائي من العمل لديكم ، وشطب اسمي من سجلاتكم .

اعتدل المدير في جلسته بعد ما دار بكرسيه نصف دورة وامتدت أنامله الى نظارته فأحكم وضعهـــا فوق انفه ومطّ بوزه وقال بهدوء :

ـ ماذا تريد ؟

ـ أرجو قبول استقالتي .

ولأول مرة في حياتي رأيت علائم الطيبة والابتسامة المخلصة ترتسم على وجه المدير ، وعندما وصلت كلماته الناصحة الى أذني كدت لا أصدق ان لسانه هو الـذي ينطلق بهذه الكلمات الحانية واللهجة الابوية . قال :

ـ لا تتعجل الامر يا بني .

ـ لكنني في عجلة من أمري .

ـ أنت تعرف جيـــدا ان العمل لن يتوقف اذا استقلت .

ـ أعلم .

ـ ولذلك سأعطيك فرصة للتفكير واعادة النظر .

ـ لا فائدة . لقد قررت .

ـ ربما تعود الى رشدك وتدرك ما أنت فيه مـن خطـأ .

ـ لا ، لا ، لقـــد كبر حجم الصخـرة وما عدت اطيق صبرا .

ـ عن أية صخرة تتحدث ؟

ـ صخرتي .

ـ وماذا تعني صخرتك ؟

ـ أردت أن أصر على موقفي ، هذا كل شيء .

ـ لقد أصبحت غريب الاطوار حقا .

ـ ولذلك أصر على ترك العمل .

ـ فليكن ما تريد . أنا موافق على استقالتك .

٢ ـ الرحيل

رجعت الى غرفتي التي أسكنها ، وشرعت أجمـع حاجياتي في حقيبة كبيرة ، فسألتني جارتي متعجبة :

ـ لماذا تجمع أشياءك ؟

ـ اني راحل .

ـ راحل ؟

ـ لم أعد أطيق صبرا .

ـ ما الذي يضايقك ؟

ـ لا أدري كيف أوضح لك .

ـ وأين ستسكن ؟

ـ لا أدري .

ـ ألم تجد غرفة افضل ؟

ـ لا .

ـ كان عليك أن تخبرني انك غير مستريح للسكنى في هذه الغرفة .

ـ ليس ذلك مهما .

ـ ابق ، سأعطيك غرفة أحسن منها .

ـ آسف .

ـ أنت مصرّ ؟

ـ نعم .

ـ الى أين ستذهب ؟

ـ سأغادر هذه المدينة نهائيا .

أدخلت يدي في جيبي وأخرجت ورقـة نقديـة هي ما يترتب عليّ دفعه ايجارا للغرفة ، ولوحت بالورقة المالية في وجه جارتي ضاحكا ، ثم وضعتها في يدهـا الممدودة نحـــوي ، وصافحتها مودعا ، بينما تناولت حقيبتي بيدي الثانية واندفعت الى الطريق مسرعا .

٣ ـ الوصول

قضيت عددا لا يحصى مـن الايام مسافرا ، حتى نزلت هذه المدينة البعيدة ، حيث لا يعرفنـي الناس . ولكني ما كدت أتجول في شوارعهـــا ، وأراقب سير الحياة فيها ، حتى لاحظت مدى التشابه الكبير بينهـا وبين مدينتي الاولى .

وفي اليوم التالي استوقفني رجل غريب الهيئة ، يرتدي ملابس فضفاضة ، وقال لي :

ـ مرحبا أيها الغريب .

ـ ومن أخبرك انني غريب ؟

ـ انا أعرفك جيدا .

ـ لا أذكر انني قابلتك قبل اليوم .

ـ أما زلت تعاني من صخرتك ؟

ـ صخرتي ؟

ـ نعم صخرتك .

ـ اذن تعرفني حقا !!

ـ أجل .

ـ من أنت بحق السماء ؟

ـ أنا منجم .

ـ وهل تعرف طريقة اتخلص بها من حملي ؟

ـ نعم .

ـ قلها أرجوك .

ـ أكتب قصتك .

ـ قصتي ؟

ـ اذا كتبت قصتك ونشرتها بين الناس ، اضمحلت صخرتك وتخلصت من الثقل الذي يرهقك .

ـ لكنني لا أعرف أصول كتابة القصص .

ـ يكفي أن تكون صادقا فيما تكتب .

ـ ثم أنا لا أملك مالا لطباعة القصة ونشرها .

ـ قدمها لاصحاب دور النشر .

ـ قد يرفضونها .

ـ لا تعقّد الامر ، أكتب قصتك أولا ثم حـــاول ان تنشرها . فذلك السبيل الوحيدة لخلاصك وراحـة نفسك .

٤ ـ المواجهة

وقفت مضطربا عـــلى باب أكبر دار للنشر في المدينة أتأبط مخطوطا ضخما يتضمن قصتي ، وتشاغلت بالنظر الى مئـــات الكتب المختلفـــة الالوان والاحجام والاشكال ، مرصوفة على الرفوف في كل اتجاه ، حتى اذا ما هدأت نفسي قليلا ، وتقلص ظل الخوف من أمام ناظري ، دلفت الى الداخل ، فاذا أنا أمام رجل بطين ، يضع لفافة تبغ مشتعلة في زاوية فمـــه ويحدّق في صفحات مجلد كبير الحجم .

تلجلج لساني بتحية ، فرفع البطين رأسه وصوّب اليّ نظرات ثعلبية فاحصة وقال :

ـ أتريد شيئا ؟
ـ لقد كتبت قصتي وأبحث عن ناشر لها .
ـ هل نشر لك من قبل ؟
ـ لا .
ـ هل كتبت غيرها من قبل ؟
ـ لا .
ـ اذن هي تجربتك الاولى ؟
ـ أجل .
ـ هل اشتغلت بالصحافة ؟
ـ كلا .
ـ هل درست في الجامعة ؟
ـ نعم .
ـ هل قرأت نظريـــة الكواكب غير المنظورة في طبقات السماء اللامحدودة ؟
ـ لا .
ـ يؤسفني أن أقـــول لك اننا لا نستطيع نشر هذه القصة .
ـ دون أن تقرأها ؟
ـ نعم .
ـ لكنها قصة صادقة ومبتكرة من نوع جديد شكلا ومضمونا .
ـ اذن أنت لم تتقيد بشروط القصة التقليدية ؟
ـ لا .
ـ انك بذلك تثير الراي العام ضدنا .
ـ أنا أتحمل كامل المسؤولية .
ـ لا ، نحن وحدنا المسؤولون عن كل شيء .

ثم دفع مخطوطتي في وجهي بفظاظة ، وعاد يحدق في مجلده .

٥ ـ المطرقة

تأبطت مخطوطتي ورحت أعرضها على كل دور النشر في المدينة ، فتلقيت ردا مستمرا واستخفافا وسخرية من قبل الجميع . ومضيت أضرب في الازقة والشوارع على غير هدى حتى تورمت قدماي وشلت ساقاي من الجهد والتعب . أسرعت عائدا الى غرفتي وأغلقت الباب عليّ بالمفتاح ، ثم وقفت أمام المرآة الكبيرة المثبتة في الجدار ، فشاهدت الصخرة تدفع ملابسي فيما بين كتفيّ وتشكل بروزا محدبا ظاهرا .

وضعت مخطوطتي جانبـــا وخلعت سترتي ثم قميصي ، فظهرت الصخرة واضحـــة وقد انعكست صورتها أمامي في مرآة الجـــدار . عندئذ أحسست بمرجل حقـــدي يغلي في صدري وبرأسي يكاد يتفجر بغضبي وقهري . ولاحت مني التفاتة الى حيث مخطوطتي ، فاذا هي قد تحولت الى مطرقة فولاذية ضخمة .

تناولت المطرقة وقلبتها بين كفيّ متعجبا ، فاذا هي ثقيلة الوزن جدا ، ونظرت الـــى المرآة من جديد فراعتني صورتي كأني أراها لاول مرة . كنت عاري الظهر والقفا ، أحدق بعينين متقدتين الـى الصخرة المستقرة على كاهلي .

رفعت المطرقة عاليا بكلتا يدي وأهويت بهـا بكل قوتي ونقمتي وعذابي عـــلى الصخرة ، فامتلأ الكـون حولي بدويّ هائل وأصوات صاخبة وضوضاء لاشيـاء كثيرة تتحطم .

سكنت الضجة ، فاذا مرآة الجدار مهشمة وقـد تناثرت أجزاؤها في كل أنحاء الغرفة .

وتحسست بدني العـــاري فاذا هو مليء بعشرات الجروح النازفة ، بينما ما تزال يداي قابضتين جيـدا على ذراع المطرقة .

اللاذقية

محسن غانم